منامات رئيفة

\

منامات رئيفة

أحمد مستلقٍ على أرض الديار، غير أنه أكبر من حجمه بكثير، أكبر بمرة أو مرتين. رئيفة تنظر إليه بقلق من شباك المطبخ، تستغرب، تفلت مفاصلها ويبرد جبينها. لقد رأيتِ هذا المشهد، أين؟ أين يا رئيفة؟ لم تتذكر. تلتفت إلى بستانها الصغير حيث الدوالي من كل الأنواع، تعربش على كل الحيطان، تتنهد بشيء من قلق، ثم وكما كانت متوقعة، تتحول الدوالي إلى معابر لجيوش من النمل الأحمر، تنْزِلُ على الحيطان مسرعة إلى أحمد المستلقي، ترتجف رئيفة بشدة، تسقط مفاصلها على الأرض، ويتجمد رأسها، بينما جحافل النمل تستمر إليه وقد صار أكبر من حجمه بأربع مرات، فتتخلله وتنْزِل من تَحته وتسحبه مثلما هو، وكأنه موضوع على دوالايب صغيرة غيرِ مرئية، تسحبه صوب المدخل إلى خارج الدار. يقف جسمه الكبير عائقًا أمام خروجه، يبدأ سربان من النمل بنهش يديه وقطعهما حتى يستطيعوا تمريره، تقطع اليد الأولى، ثم الثانية، دون أن تسيل نقطة دم واحدة، يغادر الموكب المدخل، تسمع رئيفة باب الزقاق يفتح، ثم تسمعه يغلق، أما مفاصلها، فتتحول إلى قطط تموء بإلحاح شديد تريد أن تأكل.

تستيقظ فزعة، تطمئن لشخير أحمد، وتظل ترتجف حتى يأتي الفجر ويقول المؤذن: الله أكبر، فترتاح.

إنه المنام نفسه يأتيها للمرة العاشرة منذ ثلاثين سنة، فتكتمه وتتستر عليه وترميه في بير مثل كل مرة، لم تروه لأحد قط، حتى لا يتحقق فتفسيره سيئ ولا يجوز أن تتلفظ به بأي حال. إنه المنام نفسه، ولكن هنالك زيادة ما، لقد أخرجته أسراب النمل من باب الزقاق، سألت ربها:

ماذا تفعل؟ اليوم، سوف تفعل مثلما فعلت كل مرة، ستمنعه من الخروج ولن تبوح بالمنام مهما كان.

تحاول وهي تقدم له قهوة الصبـــح أن يشرق وجهها بضحكة، غير أن أناملها ترتجف بخيانة صريحة، تتماسك في آخر لحظة، وتحتفظ بجزء من الضحكة قبل أن تتسرب مع اضطراب صدرها، غير أن سؤاله المعتاد في كل صباح، عما رأت في منامها، يأتي صاعقًا فيبدد الابتسامة الحلوة، يعكر وجهها الحلو بغيوم تنذر بمصيبة، يجلب الغبار إلى الوجه العذب، فتُهرِّب وجهها صوب الدوالي لتطمئن. قامت إليها، قلبت أوراقها، نقبت عن النمل الأحمر، عادت تحت وطأة نظراته المستغربة. فلم يعد ممكنا تأجيل الموضوع، تطلب منه بإلحاح ألا يذهب إلـــى الدكان في هذا اليوم. بعد صمت قصير، يطلب منها أن تسرد لـه المنام الذي رأته.

منذ أن اطمأنت إلى شخيره، حمدت الله وربطت لسانها عنه بالخيط والإبرة، ودربت نفسها على قول الأشياء التي يجب أن تقولها فقط، سرد منام بشع كهذا يعني وجوب تحققه في واقع الحياة، لن تسرده مهما كلَّف الأمر.

لم يستجب لتوسلاتها في البقاء لأنها لم تذكر سببًا وجيهًا، فقرَّر أن يغادر إلى الدكان. غير أن تَخوفاتِها الغامضة جعلته يتريَّث ويُحقِّق، يتقدم خطوة، يتراجع خطوتين، لعلها تحكي السبب، لكن من دون فائدة.

لقد ظل منامها الصباحي الذي يرسم في العادة نهاره، حبيس صدرها لهذا اليوم، لم تلفظ منه كلمة.

لأجل نور عيونها فقط، سوف يسلم العمل هذا اليوم للأجير بعد أن يسوِّي بعض الحسابات، ثم سيعود مسرعًا ليقضي معها النهار كله. وعدها وهي تلاحقه بقلق، بأنه سوف يجلب معه لحومًا متنوعة ملائمة

للشواء، ولن يأبه لداء النقرس، ولا لتوصيات الأطباء الغبية، فهذا اليوم كله لرئيفة من دون غيرها، استدرك وهو يعبر الردهة المظلمة، وأكد أنه لن يطيل غيابه، ولما غاب في نور الحارة، عاد وأطل برأسه بحركة محببة، كأنه عاد شابًا في العشرين، طلب منها أن تشتغل بالسلطة والفتوش وتشعل الفحم وتُهيئ الأرغيلة، ثُم تجمد وتجمدت ابتسامته بين شاربيه، لعلها تتكلم أخيرًا، فلم تلفظ إلا الرجاءات الملحاحة في عدم ذهابه، صرخ في وجهها رافضًا أن يسمعها حتى وإن تكلمت، ولقد غادر وهو يُلوِّح بيديه والرذاذ المُتطاير من بين شاربيه يحوم في الهواء، أمام وجهها الْمُتجمد الدامع.

مر على أبو رياض الحلاق، قش ذقنه، ثم اتصل من عنده بالأجير بأنه لن يأتيَ هذا اليوم.

لم ينتبه بالمرة إلى ثرثرة أبو رياض، كان يفكر برئيفة، كم يحبها! وكم يزداد حبه لها يوما بعد يوم. لأكثر من أربعين عاما ظلت ترسم يومياته وكان وجهها عند الصباح يرسم مسيرة نهاره دائمًا خيرًا كان أم شرًّا، وهي تروي المنام، بشعًا كان أم حلوًا. يعدها السبب الرئيسي في نجاحه فقد كان عندما تزوجها يملك ربع دكان في سوق الهال، أما اليوم فهو يملك ويدير سبع دكاكين بفضلها، فيستيقظ مبكِّرًا لكي يعرف ما سوف يحصل معه، فتسرد له المنام ويكون إيذانًا أن يشتري مثلاً خيارًا أو بصلاً، فيفعل ما تُوحي إليه بالضبط حتى كوَّن هذه الثروة الكبيرة.

ولذلك كله ظل مُخلصًا لها طوال عمره، ولم ينظر إلى غيرها، مع أنها لم تنجب له إلا خمس بنات. إنه لا يبدل ظفرها بنساء الدنيا كلها.

منذ أن أتت إلى الدنيا، لم تجد أمها التي ماتت بعد ولادتها مباشرة، بل وعت امرأة ظالمة حيث كان أبوها متزوِّجًا منها، كبرت بقدرة قادر ولم يكد أبوها أن أتى لها بأحمد الذي يكبرها بعشر سنين، فأخرجها من الجحيم الذي لم تعد إليه أبدًا، وراحت تبني جنتها التي ترفض الخروج

منها لأيِّ سبب من الأسباب، همُّها الوحيد أن تحافظ على زوجها وبناتها وتربيهم، ولأنها بنت حلال ودرويشة، كاد يحميها برموش عيونه.

أول ما فتح الباب، صرخ بأعلى صوته عما جرى للأرغيلة التي طلبها منها، لقد حقَّق رغبتها في عدم الذهاب حتى من دون أن يعرف السبب، فاشتعلت وجنتاها مثل دراقن، وراحت تبكي من الفرح. اتصل باللحام وأوصاه أن يبعث لحومًا متنوعة تصلح للشواء.

ومناماتها كلها من النوع المشوق والطريف في آن معا، وأجمل ما فيها سردها للمنام، فليس من عادتها أن تؤشر بيديها، بل لها نبرة عذبة تشد، ووجه يفضح ما بداخله مباشرة، وهي تدرك هذه الصفات فتؤكدها وتُحافظ عليها. مرة، شافت بنتها ليلا تأكل فأرا حيًّا بعد أن تلفه بالخبر، فلم يلبث أن أتاها عريس في اليوم ذاته. ومرة أخرى، شافت بنتها ساميا تتأرجح بجانحي أبو سعد وهو يطير فوق أرض الديار، فتخرجت من الجامعة في اليوم ذاته.

استلقى على الفراش في أرض الديار. نظرت إليه من الشباك، فصرخت مرعوبة من استلقائه على هذه الطريقة، ركضت إليه وجلست بجانبة تسأله عما حصل له أو إن هو يشعـر بشيء ما؟ ضحك وطمأنها، ثم سألها عن الأرغيلة. ذهبت إلى المطبخ وهي تتلفت إليه، ثم نادته، اقتربت منه فزعة نادت ثانية، غير أنه لم يُجِبْها! أخذت تدعوه إلى الوقوف من أجل الأرغيلة التي بدأت تجهز، غير أنه ظل على سباته ولم يجب، تجمد جبينها، واصطكت مفاصلها.

بعد جهد جهيد، استطاعت أن تصل إلى التلفون، فراحت أصابعها تحوم فوقه من دون الوصول إلى نتيجة.

ولم يلبث أن وصل الجميع ومعهم الدكتور، إنا لله وإنا إليه راجعون لقد توقف القلب عن العمل والله الرحمن الرحيم، ولم تلبث أن قامت

مناحة، وتصاعدت موجات البكاء ورئيفة تنظر مستغربة لا تعرف ما يحصل، أخيرًا نفخت وركبت مفاصلها المبعثرة، وقفت ودخلت واثقة إلى أوضتها تحت استغراب وحيرة الجميع.

لم تغف أكثر من دقيقة، خرجت بعدها صرخت على الجميع وأمرتهم بالسكوت التام والانصراف من القاعة لأنها ستتكلم مع أحمد بشيء خاص لا يجب أن يسمعوه ، وجلست بالقرب منه، راحت تحكي له منامًا بالطريقة والنبرة نفسها التي كانت تسرد له مناماتها كل صباح، والجميع يراقبونها من الشباك ويبكون بخوف وشفقة، وقد ظنوا أنها فقدت عقلها، فلم يلبث الميت أن رفع رأسه وجلس ثم كلم رئيفة بعتاب:

- شو صار بالأرغيلة؟!

فردت عليه من دون أي مفاجأة

- على عيني وراسي!... جاهزة.

وقفت واثقة من نفسها وتحركت خارجة كعادتها كل عمرها حتى تأتي له بالأرغيلة.